المعرفة في مواجهة " ثقافة النزوة"

مقاربة أنتروبولوجية

مصطفى البحري: باحث تونسي في علم الاجتماع

الكلمات المفاتيح: الثقافة – المجتمع – اللذة – الذاكرة – المعرفة – المقدس – التمثلات – الفضاء العمومي

مقدمة

نعترف ان الشخصية المعاصرة تحررت من قيود السائد لغة وسياسة وفكرا ومقدسا وضميرا وانطلقت نحو عوالم كتومة مشوهة بمضامين جاذبة ومستفزة حيث الانخراط في ثقافة اللذة والمتعية والانغماس في زمنية الهروب من الواقع، فرمزية المشترك والثابت تلطخت وتشكلت دلالات ثقافية صادمة ومفزعة على الاعتبار ان المنسوج الثقافي الجديد لم تعد تحوك خيوطه المرجعيات الكبرى والموروثات والقيم الجماعية، ولا حتى اللاشعور الجمعي، بل اللحظات الراهنة والاعتيادية والمتسارعة والتافهة هي التي تبني ثقافة المجتمع وقيمته الرمزية. هذا الانتفاض على مفاهيم نظرية الثقافة والانغماس في تصريف المعنى من صميم اللا معنى والرحيل إلى عالم الخراب والدمار الاجتماعي يقودنا بالضرورة إلى ولادة مصطلح ثقافي جديد محكوم بالمتعة والمشهدية والهمجية يمكن ان نصطلح عليه ب" النزوة الثقافية " . هذا الكيان الثقافي الجديد استفاد من هشاشة البنى النفسية والاجتماعية للأفراد وحالة ارتخاء وضعف الدولة وعودة الصراعات العشائرية حيث يكون الانتماء للعرش ملاذا

أخيرا للشعور بالأمان والقوة. من هذا المنطلق جاءت المعرفة لتنفض الغبار على الذات المدنسة وتطهرها من عفن العولمة من خلال ترميم قيم الجماعة وتأصيل دور المؤسسات الاجتماعية كالأسرة والمدرسة والدين ... وبالتالي إنشاء محمل ثقافي جامع ومؤسس يقوم على التواصل والتفاهم والعيش المشترك. فالمعرفة تهب الواقع الاجتماعي معنى وفاعلية رمزية من خلال طقوسها وقيمها وعلومها وعادتها وتقاليدها، إذ الذات لا تستمتع بجمالية الحياة ومتعة وجودها إلا بالمعرفة باعتبارها رمز السعادة والبقاء الإنساني.

لذلك سنعسى من خلال هذا البحث إلى فهم "ثقافة النزوة " من النظرة الاجتماعية والثقافية على اعتبار أننا أمام غرابة ثقافية تسبطن فكر اللذة وتنشئ لها تمثلات وممارسات تضمن حضورها في الفضاء العمومي حيث السعادة في التافه والسطحي.

ونؤكد ان هذه المقبولية السلسلة لخوض تجربة تخريب الذات لا يمكن مواجهتها إلا بالمعرفة التي تظهر في المؤسسات الاجتماعية التي تحافظ على النظام القائم وتضمن الاستقرار الاجتماعي. ومن هنا كان الاهتمام بهذا الموضوع حيث عنف الثقافة السائدة يسكن قلب العمومي وينهش جمالية الذات الإنسانية. ولذا فإن هذه الدراسة ستحاول قراءة النمط الثقافي الجديد المرتبط بالنزوة والهمجية وكيفية مقاومته بسلاح التنمية المعرفية.

فالأسئلة المركزية التي توجه تحليلنا هي:

ما ثقافة النزوة؟ وماهي تجلياتها في الفضاء العمومي الحسي والافتراضي؟ والاهم، كيف ساهمت المعرفة في تنقية المجتمع من دنس ثقافة النزوة؟

إن المعالجة العلمية لهذه الظاهرة الثقافية يتطلب توظيفا نظريا وجهازا مفهوميا ليصبح فهمنا للموضوع أكثر وضوحا خاصة إذا اخذنا بعين الاعتبار ان المفهوم في الانتروبولوجيا يتداخل ويتشابك والمفاهيم الفلسفية والسوسيولوجية وفي صلة مباشرة بالسياقات الثقافية والاجتماعية والسياسية.

ا-في دلالة المفاهيم :

نستأنس في هذا البحث بتوظيف مفاهيم الثقافة والمعرفة والفضاء العمومي عند الحديث عن التحولات الثقافية الجديدة ودور المعرفة في تنقية الذوات الإنسانية من دنس السائد وشحنها بقيم التعايش والخلق والابداع.

1. 1-ماذا جرى؟ من ثقافة النهايات إلى نهاية الثقافة:

2. 1-1التفكير في الثقافة أنثروبولوجيا:

يعتبر تعريف **إدوارد تايلور** للثقافة أول تعريف أنثروبولوجي وأكثرها انتشارا إلى اليوم لقيمته التاريخية والعلمية حيث يذهب في كتابه "الثقافة البدائية" الصادر سنة 1871 إلى أن الثقافة هي "**ذلك الكل المركب الذي يشتمل على المعرفة والمعتقدات، والفنون والأخلاق، والقانون والعرف، وغير ذلك من الإمكانيات أو العادات التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضوا في المجتمع**[1]". هذا التعريف وصفي وموضوعي، ينظر للثقافة على أنها تعبير عن شمولية الحياة الاجتماعية للإنسان، كما يُبرز أن الأنساق الثقافية والمنتجات اللامادية كالطقوس الدينية والعادات والفنون تنشأ في إطار التفاعل الاجتماعي وتختلف حسب اختلاف الأشكال الاجتماعية وتأخذ طابعا إلزاميا، فقهرية النسق الثقافي واتجاهه الزمني الخطيّ يُظهر انسجاما بين التطورية والوضعية، ومعنى هذا القول أن الظاهرة الثقافية تتماهى في تطورها ونموها مع الظاهرة العلمية وتسير وفق مسار خطي وتحمل مضمونا إيجابيا لكنه غير متكافئ بين شعوب متقدمة وشعوب بدائية . استفاد **غي روشاي** من هذا التعريف ومن تعريفات أخرى لاحقة معتبرا أن الثقافة هي "**مجموعة مترابطة من أساليب التفكير والإحساس والعمل المتشكلة إلى حد ما تتعلمها وتشترك فيها جماعة من الأشخاص يكوّنون مجموعة خاصة متميّزة**[2]".

هذا التعريف يشتمل على أهم خصائص الظاهرة الثقافية من وجهة أنتروبولوجية، نذكر منها التشكّل، التّعلم، المشاركة واعتبار الثقافة معطى فكريا وعاطفيا وماديا، لكنّه لم يحل دون وجود تعاريف أخرى صنّفت تصنيفات مختلفة حسب المدارس والاهتمامات والاتجاهات، فمثلا تعتبر المدرسة التطورية أن فكرة التقدم تحمل مضمونا إيجابيا بحيث تسير الشعوب البشرية إلى الأمام من البساطة إلى التعقيد وكلما تطورنا كلما كانت المراحل اللاحقة أكثر تعقيدا، فتاريخ البشرية وتاريخ الثقافة يمثل خطا متصاعدا من العادات والقيم والممارسات الفكرية والمادية, هذا التصور الخطّي لتاريخ الإنسانية انتقدته العديد من المدارس الأنتروبولوجية واعتبرته تحيّزا لمنتجات الشعوب المتقدمة وإلغاء لفكرة التنوع الثقافي واختلاف مسارات التجارب البشرية، لذلك اكتشف **فرنس بواز** مبدأ أنتروبولوجيا جديدا يقوم على اعتبار أن لكل ثقافة خصوصية تميزها ولا تُفهم إلا من داخلها، فهو يؤسس لفكرة البؤرة الثقافية بمعنى ثقافة واحدة قد تنشأُ منها ثقافات متعددة ويعيد الاعتبار للشعوب البدائية من خلال نزوله للميدان ومعاشرة الشعوب وبالتالي اكتشاف حقائق جديدة [3].

فالمدرسة الانتشاريّة نجحت في دراسة مكتسبات الشعوب المنجزة وشكلت فكرة جديدة وهي أن المعيار الذي تُقاس به الشعوب هو قدرتها على إنتاج الثقافة البشرية لكنها سقطت في تحنيط الثقافة من خلال اهتمامها بالفلكلور ودراسة منتوج الماضي. وفي خضم هذا الصراع الفكري بين الاتجاه الانتشاري ومنطلقات الاتجاه التطوري ظهرت الوظيفية واقترنت بصورة أساسية بأعمال **ماليونفسكي** الذي ينطلق من اعتبار الثقافة كلا متجانسا يتضمن مؤسسات المجتمع لتلبية رغبات الفرد معنى ذلك أن كل مؤسسة اجتماعية تستجيب لحاجة وتعمل على إشباعها وتنهض بوظيفة تساهم في استمرار الكل الاجتماعي. فالنسق الاجتماعي يظهر في حالة تلاؤمية مستمرة ويتشكل في وضعية التكامل والتوازن، لذلك اهتمّ هذا المفكر بدراسة القبائل الماليزية وقبائل المكسيك وإفريقيا الجنوبية مركزا على الوظائف التي تحكمها بعض الممارسات بالنظر إلى أن لكل مؤسسة وظيفة، ولكي نتمكن من فهم هذه الوظيفة يجب إرجاع كل عنصر اجتماعي إلى الكل الذي ينتمي إليه، فالثقافة إذا كل لا يتجزأ تشدّ أجزاءه علاقات تبعية متبادلة[4]. ولم يخرج **ميرتون** عن دائرة الفكر الوظيفي غير أنه يؤكد

على وجود ظواهر الصراع والتغير والتناقض، وهي ظواهر تهدّد بتحول كبير في البناء الاجتماعي، لذلك ميّز **ميرتون** بين نوعين من الوظيفة وهما الوظيفة الظاهرة والوظيفة الكامنة، فإذا كانت الوظيفة الظاهرة تعني النتائج الموضوعية التي يمكن ملاحظتها والتي تّسهم في الحفاظ على النسق الاجتماعي فإن الوظيفة الكامنة هي التي لم تكن مقصودة أو متوقعة، فمثلا الممارسات الثقافية السائدة في دلالاتها الظاهرة فعل اجتماعي ودافع سلوكي واع وتعبير عن ثقافة وهوية خاصة، وفي دلالاتها الكامنة محاولة إنسانيّة من أجل الدخول إلى الحياة وفرض الذات والاعتراف الاجتماعي. فالتمثلات الراهنة تحمل رسائل مشفرة حول الشخصية المعاصرة وما تعيشه من تمزقات وجدانية واجتماعية، وتكشف عن نشأة " **نمط حياة جماعي يتّسم بنوع من الهامشيّة إزاء المجتمع**"[5].

-**2ماذا يجري من حولنا؟** نؤكد على غرابة الذات الإنسانية وهي تناضل من أجل تحقيق الاعتراف وتلهث في عصر تجتمع فيه كل التناقضات و"تتهاوى فيه النظم والأفكار على مرأى من بدايتها، وتتقادم فيه الأشياء وهي في أوج جدتها [6]"، عصر يقودنا نحو المجهول حيث موت المرجعيات الكبرى واللحظات المؤسسة، انتهت الميتافيزيقا، تشتتت رمزية المدرس، انكسرت قيمة الذاكرة الجماعية على النحو الذي جعلنا نتجه صوب المجهول غير عابئين بمخاطره ومآلته المدمرة للوجود الإنساني. فالذات المعاصرة انخرطت في عصر المعلومات دون ان تؤهل نفسها وتعدها لتلقي التكنولوجيا حيث الانزلاق في السرديات الثقافية اللذيذة دون الاهتمام بما هو نفعي وخادم للإنسانية، فالأفراد واجهوا مجهول ثقافة المعلومات بعقليه سلبية حيث الضياع في تضاريس المشهد العالمي الثقافي –المعلوماتي. هذه المشهدية الثائرة في عالم الثقافة التي صرنا من خلالها نتعامل مع مجردات من رموز وأيقونات وسمات وعلاقات وصلات ومؤشرات وخلافه لم تستوعبها الذات المعاصرة مما اضطرها للتملص من تعقيداتها العلمية والانخراط في سردياتها اللذيذة حيث خبث الذات يتلاعب بالعمومي وينطلق نحو فوضى معيارية على اعتبار ان فكرنا العربي لم ينضب في معظم مجالات الثقافة وفشل في تأسيس صروح فكرية وابداعية شاملة وخاض تجربة خراب الذات

من خلال الانصياع لثقافة النزوة ومقولة الحس المشترك إذ لم تعد الافراد تهتم بما هو معرفي وعلمي في الفضاء الخائلي بقدر اهتمامها بالمستفز والتافه والسطحي .

خلاصة القول، فإن هذا الفعل الثقافي الجديد سواء كان استثناء ثقافيا أو تمردا اجتماعيا، فمن خلاله يقع تصريف المعنى وإنتاج مضمون ثقافي جديد متحول، معاد للناموس ومتشبث برمزية القبيح والمبتذل على نحو تكون فيه قيمة المتعة غالبة ومهيمنة على قيمة التعايش، فتنتشي التجربة الذاتية على حساب الضمير الجمعي وتتأسس تعبيرات ثقافية جديدة قائمة على النزوة والهمجية، وهو ما ينبئ بتحول المجتمع إلى مجرد متقبل للثقافة الوافدة دون الوعي بمخاطرها وتأثيراتها السلبية على النسق الاجتماعي واستمراريته.

-الفضاء العمومي: من الحركية الثقافية إلى التموقع المغشوش

اقترنت مقولة الفضاء العمومي، حسب "**يورغن هابرماس**"، بولادة المجتمع المدني" **الذي يحتوي على أفراد خصوصيين يستعملون عقولهم استعمالا برهانيا**[7]"، فالفضاء العام يتأسس على مشروع الفعل التواصلي الذي يقوم على التوافقات الاجتماعية التي تتم بالحوار بحسب قواعد أخلاقية وسياسية تنظم أخلاقنا في المجتمع والفضاء العمومي والحر. ولكن، واستنادا إلى أطروحات أكسيل **هونيث** و**نانسي فرازار** يمكن ان تكتسح الفضاء العمومي مطالب الاعتراف حيث الرغبة في المطالبة بحقوق نوعية كالاعتراف بالهوية الدينية أو بهوية إثنية أو جندرية .... كما وجدت حركات اجتماعية ذات مطالب نوعية كحركات التحرر النسوي. ما يهمنا أننا أمام مجال حي يؤسس للتواصل والتفاعل والتداول ويستمد حركيته التواصلية من الخطاب النقدي تجاه الدولة وتجاه الغيرية.

هذا الاحتفاء بحيوية الفضاء العام باعتباره محفلا "**للمناقشة العامة** [8]" كما يقول إيمانويل كانط ومجالا للحركية الثقافية لا يجد صداه عاليا في الفضاء العمومي المحلي إذ

الذات العربية المعاصرة تحمل تمثلات خاطئة عن فضائها العام وتراهن على الولوج إليه فيزيقيا دون صيانة علاقتها بذاتها وبالاخر والعالم. معنى ذلك ان الشخصية العربية المعاصرة لا تخضع في تمثلها للفضاء العام للمعايير التواصلية أو الصراعية[9] على اعتبار انها تعيش انفصاما في الذهنية وفي تمثل الدولة. فنحن إذا أمام صورة ثقافية غريبة مشبعة بالتحيزات الثقافية والانحرافات السلوكية مما يجعل أحقيتها في جرعة المعرفة ملحة من أجل صياغة خطاب ثقافي جديد يراهن على المعنى والمفيد في الفعل الإنساني.

3-في تعريف المعرفة: أو في الحاجة إلى المعرفة:

ساهم كانط في تطوير مفهوم المعرفة إذ يعتبرها نتاج وحدة المختلفين (الحساسية – الفهم)، ويبقى كل منهما غير كاف وحده لإنتاج معرفة،" **فالأفكار من دون محتوى فارغة، والعيانات من دون مفاهيم عمياء** [10]"، في حين أكدت الانتروبولوجيا على أن " **العلم والدين كلاهما أنظمة معرفة ومن المفيد أن نفهم كيف يختلفان، ونوع المعرفة المكتسبة من العلم تسمى في كثير من الأحيان الفهم العلمي** [11]" .

والحق قد نجح ميشال **فوكو** في تأسيس مفهوم مركزي للمعرفة كما يؤكد على ذلك **هابرماس** [12] وتأكيد حقيقة جد مؤثرة : " **ألا وهي ضرورة تخليص الانسان الجديد من كل صور التموضع التي سجنه بين حدودها الخطاب الوضعي باسم علم هو أصلا نتاج تاريخ حُول زورا إلى مقياس موضوعي لكل تاريخ وباسم معايير متغيرة أقيمت أساسا ومرجعا لكل تغيير** [13]"، فالمعرفة أهم وأشمل من العلم، تتضمن ما هو علمي وما هو غير علمي حيث تخضع المعرفة العلمية لبناء استنباطي محكوم بالانسجام والاتساق بين قوانين ومقومات النظرية العلمية ، أما المعرفية العامية فهي نتاج التصورات والتمثلات المشتركة بين الناس والتي تفتقد إلى خصوصية البناء المنظم .

ما يهنا أن المعرفة سواء كانت تعتمد على القدرات العقلية والذهنية، أو انها تنطلق من فاعلية التصورات المشتركة فإن دورها في تهذيب الذائقة الثقافية وإنتاج خطاب جماعي إيجابي مازال مهما على اعتبار قيمتها ورمزيتها الاعتبارية، فالرهان الأساسي لكل معرفة هو الحقيقة حيث يتمكن الانسان من التعرف على ذاته وعلى العالم المحيط به من خلال المعرفة، كما تشكل مجموع المعارف الحاصلة لدى الانسان الأساس في تكوين الهوية كمعرفة الذات وتحصين علاقتها بالعالم والاخرية ، وبهذا تحمي الذات نفسها من الاغتراب والاستلاب وتنطلق نحو عوالم إيجابية .

II-ثقافة النزوة تسكن قلب العمومي :

نقف اليوم على تشكّل جديد للفضاء العمومي تكفّل باحتواء تعبيرات ثقافية متنوعة غير خاضعة للمعايير الاجتماعية والثقافية، لكن ومع ذلك استطاعت فرض نفسها داخل الفضاء الحسي والافتراضي مستفيدة من عموميّته مؤسسة بذلك إيتيقا تواصليّة جديد قائمة على المتعة واللذة والسطحية.

1-الفضاء الحسي والسرديات الثقافية اللذيذة:

يتجه تحليلنا إلى اعتبار اتباع النزوات ظاهرة ثقافية تستحوذ على الذوات المحكومة بالدوافع حيث انزياح الإنسانية إلى الشهوة وخوض تجربة تدمير النفس واستنزاف روح الجماعة وقيم العيش المشترك إذ المتعة في الفوضى المعيارية والانحراف السلوكي. فالفرد ينسلخ من ذاته الواعية وينطلق نحو لاشعور مهلك حيث الفردانية والغرائزية تستفيد من التبريرات الثقافية التي تعزز فكرة النزوة من خلال حافز السرديات الثقافية التي تحتضن الانحراف والسلوكيات الشاذة وترفض القيم الجماعية والمرجعيات الكبرى.

فثقافة النزوة استفادت من منتجات العقل والمتخيل التي تستوعب المتعة وتعتبرها حالة ثقافية مضادة تتوسل الاعتراف والحضور في النسيج الاجتماعي حيث الثقافة في خدمة الانحراف الاجتماعي. فبعض السرديات الثقافية قد تحفّز غرائز الافراد وتمحي قواعد العيش المشترك من خلال مضامينها وتأويلاتها التي تشجع على الانحلال الأخلاقي وانتهاك القيم المحافظة.

تحررت الشخصية العربية المعاصرة من سلطة الانا والاخرية وتجاوزت جبروت المقدس والمؤسسات الثقافية وانخرطت في سياقات تواصلية وممارسات سلوكية تقوم على أولية اللذة والرغبة كالإدمان على المخدرات ومعاشرة أصدقاء السوء والاجرام ...كلها ممارسات فوضوية تهدد البناء المعماري النفسي للأفراد وتنذر بعدم استقرار النظام الاجتماعي واستمراره. فذهنية بعض الشباب المعاصر حاولت تأسيس جغرافية ثقافية قائمة على تفريغ المكبوتات والتفاهة حيث الممارسات الشاذة كالسكر والزنا والمثلية وكأنها حقيقة ثقافية يجب تقبلها واستبطانها في الفضاء الاجتماعي.

هنا يتعلق الامر بمسالة اندماج هؤلاء الأفراد في النسيج الاجتماعي حيث لم نعد نتحدث عن انحرافات اجتماعية أو تحيزات ثقافية بقدر اهتمامنا بهيمنة اللامعنى في الفعل الاجتماعي ليصبح المعنى بذاته، فالمبتذل والتافه والبديهي والسطوح تنبني من خلالها فكرة الانسان المعاصر. فالباث هنا يحلم ويتوهم، ومع ذلك يؤسس حركة أنثروبولوجية قائمة على نشأة عالم متحرك تقوده الحيرة والثورة على الثابت.

يتخير هؤلاء الافراد لغة ثقافية مبتذلة يستخدمونها لدعم أوضاعهم الثقافية، لذلك تميز **ماري دوجلاس** بين "**اللغة المقيدة واللغة التي تدع الناس يفعلون ما يشاؤون**"[14]، فالمفردات والصيغ البذيئة غير مقيدة وأحيانا إباحية تهدد الطبيعة المترابطة لنظم المعتقدات على اعتبار أننا أمام تفضيلات ثقافية متحيزة للذاتي ومهددة في نفس الوقت لنمط الحياة

السائد وخاصياته التلاؤمية، معنى ذلك أن مشهدية ثقافة النزوة قاتمة تستهدف الذات وتقودها نحو عالم التمرد والعبثية. فهذه اللغة السوقية منتشرة في الفضاء العام وتمتلك شرعية ثقافية وحضورا دلاليا في المجتمع على اعتبار انها مرتبطة بالسياق الاجتماعي الذي ينتجها.

تتعزز ثقافة النزوة في الفضاء العمومي الحسي بممارسات شاذة يتشبث فيها مريدو السعادة المؤقتة بتمردهم على القيم المحافظة على اعتبار جواز كل أفعالهم وعدم خضوعها لمنطق الحلال والحرام، فحضور الإدمان والانحلال الأخلاقي وسط الفضاء العام يكرس تحرر الذات من الجمعي والمقدس، فينشط اللاوعي واللاوعي العميق مستلهما شرعيته من طبيعة اللحظة الديونيسوسية[15] التي تفترض هيجانا وتمردا على "الانا الأعلى" وفروض السلطة الرسمية. فكأننا أمام محاولة للتموقع في الفضاء العام من أجل الحصول على تأشيرة العبور إلى النمط الاجتماعي المضاد.

فالمغزى الاجتماعي يولد من خلال هذه التعبيرات الثقافية الجديدة التي تهاوت معها حصون المرجعيات الكبرى وتسطحت العلامات والرموز لصالح حالة تفاعلية وكينونات معقدة حيث اختراق المألوف والنزوع نحو اللامبالاة على النحو الذي تتشكل فيه شخصية مغتربة وممزقة وغير جاهزة فكريا لفهم ما يحدث حولها ومغرقة في اللامعنى.

2-ثقافة الفضاء العمومي الافتراضي والذات الخبيثة:

حينما يصادف الانسان الفضاء العمومي الافتراضي يستفرد به وينطلق نحو عوالم لذيذة يستعيد ذاته العميقة ويسترجع كيانه المحظور حيث لذة المؤانسة ومتعة الهروب إلى مدارات السعادة وعدم الخوف من المقدس والضوابط الاجتماعية. هذا التحرر من سلطة السائد وجبروت المقدس يكتسب مقبولية ناعمة حيث السماح للذات بان تعايش مضامين المدنس وتفريغ المكبوتات على نحو تنشط فيه النزوة مستفيدة من سرية اللحظة وعدم

خضوعها للمراقبة والإلزام الاجتماعي.

ويشير الفضاء الافتراضي إلى الايقونات التواصليّة الجديدة المرتبطة بشبكة الأنترنات كالفايسبوك والتوتير واليوتيوب وغيرها، حيث ينغمس الإنسان في زمنية تواصليّة جديدة تتسم بالانسياب والحيوية وتخلق " **تفاعلات ثقافيّة واجتماعية وسياسية واقتصادية تُعود بتأثيرات في المجالات الاعتقاديّة والمفاهيمية والمسلكية والمعنويّة في واقع المجتمعات والأفراد**[16]" .

فالفضاء العمومي الافتراضي زعزع حصون الحماية الثقافية وشقق أسوار مؤسسات المجتمع من خلال مرئياته ونصوصه وإشاراته الجاذبة حيث الانا مغمورة بزمن تواصلي متحرر من المشروعية والنمطية في بعدها الثقافي والاجتماعي. فالذات في حضرة الافتراضي تتلاعب بالعمومي وتطوعه لنزوتها ورغباتها الجامحة حيث الإفلات من قيم الجماعة وسلطة المقدس. فبعض الأفراد حينما يختلون بالافتراضي ينزعون نحو المواقع والمنصات الشبكية التي تهدد السلم الاجتماعي كالمواقع الإباحية ومواقع الإدمان على المخدرات والاجرام ... كما يمكن أن يتواصلوا مع مجتمعات شبكية ومنصات افتراضية تحمل قيما عدوانية ومضامين المتعة والهمجية، بمعنى ان الذائقة الثقافية في الفضاء العمومي الافتراضي قد تنحني لمقولات الحس المشترك وتنغمس في ثقافة النزوة والغرائزية والافلات من المقدس، والغريب ان الذات تتلذذ جلدها وانصياعها لثقافة الرذيلة حيث الكامن والدفين مبثوث على الافتراضي. ولعل ولوج بعض الافراد إلى المواقع الإباحية وتعدد حساباتهم الفايسبوكية يكشف كذب العالم وينزع عنه طهريته حيث ممارسة النزوات والرذيلة بطريقة سرية. ضمن هذا السياق الافتراضي يمكن أن نعود إلى الاستنتاجات التي أثارها **سيث ستيفنز – دافيتوس** في كتابه (everybody lies)[17] حول المفارقة بين الشخصية في الواقع والشخصيّة الافتراضيّة، فهذه الازدواجّيّة تكشف عن عمق التمزقات الوجدانيّة والاجتماعية وحقيقة الكبت والفراغ الذي يعيشه الإنسان المعاصر حيث يقوم بتصريف نزواته

ورغابته الخفيّة والمحرّمة اجتماعيا بالولوج إلى المواقع والصفحات التي تُهدّد بنيّة المجتمع واستمراريّته المؤسساتيّة كالمواقع التي تدعو إلى العنصريّة والجندريّة والمثليّة الجنسيّة .

وهكذا فإن ثقافة النزوة تفشت في الفضاء الحسيّ مستفيدة من عمومتيه وانفتاحه على الآخر وانتقلت إلى الحاضنة الافتراضية التي تجتاحنا بمحتوياتها الجذّابة و"السائلة[18]"، إلى درجة تتهاوى فيها مفاهيم الزمان والمكان والمرجعيات الكبرى والكيانات الوسيطة إذ يغوص الإنسان في ترحال وجداني غير عقلاني مع أنماط تمثلات ومجتمعات مغايرة، ففكرة الخلاص حاضرة بقوة في هذه البيئة الرقمية حيث التحرر من ضوابط السائد والمرئي والنزوع نحو فلك اللذة والشهوة والهمجية.

-المعرفة في مواجهة " ثقافة النزوة ":

1-المعرفة في مواجهة التفاهة:

بعد ما ظهر للعيان ما فعلته " ثقافة النزوة " في غيبة المعرفة بمسيرة تنمية المجتمعات، كان لا بد للمعرفة أن تصبح هي محور التنمية من خلال تنقية الثقافة السائدة من مظاهر الرذيلة والهمجية التي تنخر النسيج الاجتماعي وتهدد استمراريته. فالثقافة الإيجابية والمؤسسة هي "**القلب المحرك الذي تدور حوله عمليات التنمية القطاعية: سياسية واقتصادية وتربوية وعلمية وتكنولوجية، وذلك علاوة على التنمية الفكرية والابداعية. وتكتمل منظومة التنمية المجتمعية تلك بإضافة نظام المعتقدات والقيم والمحافظة على التراث [19]**".

فصياغة خطاب ثقافي بناء يطلب بالضرورة جرعة معرفية تؤتي ثمارها وتحقق

غاياتها الاقتصادية والاجتماعية، فلا بديل في راي الكثيرين إلا ان تسلم الثقافة الاجتماعية لقاطرة المعرفة، فالمعرفة بحكم طبيعتها ترفض الضحالة والاختزال والتهميش، ولا يمكن لها ان تكون مجرد عامل محفزة على التنمية، بل يجب أن تكون المعرفة هي الأساس الاجتماعي الذي تقوم علية الغايات الثقافية النبيلة التي تقوم على التنمية. إن المعرفة حينما تنصهر في كيان الثقافة تحميه من المضامين الشاذة والتضمينات المدمرة للوجود الإنساني كفعل العنف والانحراف، كما تُطهر الذات الإنسانية من دنس الرذيلة وتُخلصها من أعباء الممارسات المذمومة إذ السعادة بفضل المعرفة لم تعد مؤقتة ومختزلة في لحظة غرائزية، بل دائمة على اعتبار ان أسسها متينة وقائمة على مؤسسات اجتماعية فاعلة كمؤسسة الاسرة ومؤسسة الدين.

فثقافة النزوة تعبّر عن غلو في تمثل قيم الحداثة وتُكرس غربة الافراد في المجتمع وتعزز التشاؤمية ورفض القيم المحافظة والمتعالية، لذلك فإن دور المعرفة سيكون عسيرا في تخليص هذه الذوات من شوائب الرذيلة وتزويدها بالمعنى الاجتماعي من خلال شحنها نفسيا ودعم دور مؤسسات المجتمع كإعادة الاعتبار لرمزية الاسرة وهبة المدرسة وسلطة المقدس، فالمؤسسات الاجتماعية فاعلية رمزية تؤدي وظيفة وتحافظ على استقرار المجتمع من خلال مهامها المحفزة على التعايش والتنظم في إطار الجماعة، فقيمة الفرد لا تظهر في شكل تحيزات ثقافية بل في وحدة النسق الاجتماعي وانسجامه وترابطه مع الضمير الجمعي، وضمن هذا السياق يؤكد **هربرت سبنسر** في كتابه الشهير "**مبادئ علم الاجتماع** " على المتطلبات الوظيفية لكل المجتمعات، " **إذ لا سبيل في نظره لفهم البناء دون فهم الوظيفة المرتبطة به**[20]" ، فالأبنية المؤسسية كالأسرة والدين والمدرسة تؤدي وظائف من أجل الحفاظ على المجتمع، ومن هنا يأتي دور المعرفة من أجل تحقيق هذا الانسجام الاجتماعي وتخليص الافراد من دنس أوحال اللامعقول والمتخيل من خلال تفعيل وظيفة المؤسسات الاجتماعية وتأكيد دورها في النسيج الاجتماعي على اعتبار أهميتها في تحقيق اندماج الفرد في الجماعة .

2-المعرفة في مواجهة خطاب العود على البدء:

حلقت المعرفة بالخطاب الثقافي إلى مفاهيم ذات مرجعية انتروبولوجية حيث الحماسة والنزوع نحو العربية الإسلامية، وقد أجبرت الذات على خوض معركة الانتماء والهوية واستدرجتها نحو ذاكرة جماعية خصبة حيث الاصالة والخصوصية والقوة الثقافية الخصبة. معنى ذلك ان المعرفة حشرت التراث في العمومي ونقته من مفاهيم القبيلة والعشائرية والجهوية إذ صار الانتماء للوطن والعروبة والإسلام مرجعية ثقافية موحدة تستمد عتوها من جمالية القديم الذي يراهن على رمزية الذاكرة الجماعية بوصفها " **عظمة معرفية** "[21] كما يقول **بول ريكور** ، فتصريف المضارع في الماضي[22] يقودنا إلى عالم الامجاد ويسير بنا نحو قطار الانفتاح على كينونات الانا والاخرية، فالذات أحيانا تتلاعب بهذه الذاكرة الجماعية وتعمل على إذكاء النزعات العشائرية واستذكار النسب الدموي او الانتمائي مما يفضي إلى انزلاقات مزعجة تؤثر على البناء الثقافي والاجتماعي وتربك عملية التنمية. فالمعرفة من خلال توظيفاتها العلمية والعامية حسنت علاقة الجماعة بالمقدس والسرديات الثقافية القديمة، والاهم أنها خلقت رؤية نقدية لمضامين التراث من خلال الشحن الهوياتي والذاكراتي الذي يتأجج ويحدث شحذا رمزيا نحو المخيلة حيث التزود بالمعنى والتقرب من النمط الثقافي القديم من خلال الانشغال بالبدايات واللحظات المؤسسة ضمن سياقات اجتماعية راهنة. خلاصة القول، إن المعرفة سواء كانت علمية أو عامية فإن حضورها في الفضاء العمومي يضفي حيوية على الثقافة السائدة ويزودها بالمعنى حيث الوظيفي والقصدي يتصل بفعل الانسان، فالمغزى الاجتماعي يولد من صميم المعرفة حيث الارتقاء بالفرد إلى رحاب الجماعة والاستمتاع بجمالية الذات وهي تصاحب نواميس العيش المشترك وتنخرط في لحظة الفعل الاجتماعي الهادف الذي يقوم على التعاون والتضامن والمحافظة على القيم الجماعية.

هذا ويمكن تلخيص دور وفاعلية المعرفة في تخليص الافراد من ثقافة النزوة على النحو التالي:

خاصية الفعل الثقافي المحكوم بالنزوة

- **شعوري وجداني**
- **اندفاعي**
- **لاأخلاقي**
- **منبت**
- **وجهة نحو الفردي**
- **همجي**
- **غرائزي**
- **أناني**
- **توجه نحو الذات**
- **اللانواصل –اللاحوار**

لا اجتماعي

شخصية ممزقة اجتماعيا ووجدانيا ولا تفهم ما يجري حولها

دور المعرفة:

- **تقدير الذات**
- **الاستفادة من التجربة الحياتية**
- **وجهة نحو الجمعي**

- كونية شمولية ⟸ الاجتماعي
- خصلة أو قيمة
- نموذج
- الابداع

الخاتمة:

نقف اليوم أمام تشكل ثقافي مفزع يهدد الإنسانية ويدخل الذات في مسارات اللذة والمتعة المؤقتة حيث حقل الرذيلة يتربص بالأفراد ويدخلهم في عوالم مهلكة ومدمرة للوجود الإنساني كالانصياع للإدمان على المخدرات أو التقرب من الممارسات الشاذة أو الانخراط في صرعات اجتماعية تهدد البناء الاجتماعي القائم وتصدع رمزية مؤسسات المجتمع ، ومن هذا المنطلق جاءت المعرفة بوصفها حالة عملية وابداعية ملحة لتنقذ الذات البشرية من عفن ثقافة النزوة وتؤسس لنشأة روح ثقافية جديدة تأهلت لفهم الانسان المعاصر الذي تشبع بروح غير محتملة الأفق، لذلك فهجرة الإنسانية إلى عالم المعرفة ملحة من أجل حماية الذات والعالم والاخرية من الاستثناءات الثقافية التي تعطل مسار المجتمع وتدمر إمكانية استمراره .

مجمل القول، إن قيمة المعرفة ورمزيتها لا تكمن في ذاتها وإنما في الحركية النفسية والعقلية والاجتماعية التي تُحدثها في الشخوص التي تعاني وجودية سيئة أو مخاتلة، فتنفض عنها غبار الجهل والغرائزية وتنطلق بها نحو الخلق والابداع حيث الذوات الإيجابية تنطلق نحو أخلاقية جديدة تقوم على أولوية المعرفي والابداعي في الممارسة الثقافية والحياتية، فالمعرفة تحقق نوعا من المناعة الذاتية وتضمن التعايش بحرية دون التضحية بالسمة فوق الفردية التي تميز النظام الاجتماعي. هذه الإيجابية التي تسكن قلب العمومي بفضل المعرفة تجعلنا نتشبث بها وندعو إلى مزيد ترسيخها في الفضاء العام وفي ذهنية

الافراد.

[1]مجموعة من الكتّاب، *نظرية المعرفة*، (ترجمة الدكتور علي سيد الصاوي)، عالم المعرفة، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، جويلية 1997، عدد 223، ص. 9.

[2] خديجة مختارية، "القيم، الثقافة والتنشئة الاجتماعية"، ضمن ***www.ahewar.org/debat/show.art.asp***، مصدر رقمي أعتمد بتاريخ 12-03-2020.

[3] Pierre Bonte et Michel Izard, « Franz Boas », in *Dictionnaire et d'ethnologie et d'anthropologie*, PUF, Paris, 2008, p. 116-118.

[4] نقلا عن ذات المرجع ص. 291.

[5] Gay Rocher, *Talcott Parsons et la sociologie américaine*, PUF, Paris, 1978, p. 165.

[6] نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات، عالم المعرفة، الكو،يت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ديسمبر 2001، عدد276، ص. 11.

[7] نقلا عن: عبد السلام حيدوري، *الفضاء العمومي ومطلب حقوق الإنسان هابرماس نموذجا*، مكتبة علاء الدين، صفاقس، 2009، ص.69.

[8]نقلا عن ذات المرجع ص. 149.

[9] نقلا عن ذات المرجع. ص.69.

[10] إمانويول كانط، نقد العقل المحض، ترجمة غانم هشام، مراجعة فتحي المسكيني ، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت، 2013، ص 125.

[11] مصدر رقمي مأخوذ بتاريخ 22-11-2021 https://l.facebook.com/l.php?u=https

[12] Hurgen Habermas, Les sciences humaines démasquées par le critique de la raison Foucault, in le Débat, no 41, 1986, P .83 .

[13] محمد علي الكردي، نظرية المعرفة والسلطة عند ميشال فوكو، دار المعارف الجامعية، الإسكندرية، ص12-13.

[14] ذات المرجع، ص.414.

[15] نسبة إلى **ديونيسوس** أو **باكوس** أو **باخوس** في الميثولوجيا الإغريقية، وهو إلاه الخمر عند الإغريق وملهم طقوس الابتهاج والنشوة.

[16] حسام شاكر، كيف يضغط الزمن التواصلي الجديد على المجتمعات العربية ؟، ضمن مجلة حضارة، مركز الامة للدراسات والتطوير، العدد الثاني والعشرون، جويلية 2019، ص 92.

[17] أنظر ما قاله مترجم الكتاب أحمد الأحمري بتصرف ": يكشف سيث ستيفز–دافيتوتس في كتابه "الكل يكذب " حقيقة البشر من خلال تحليل الكم الهائل من البيانات التي نتركها لدى استخدامنا للأنترنيت حيث يؤكد أنّ أكثر أفكارنا حول الناس لا أساس من الصّحة، والسبب؟ أنّ الناس يكذبون على أصدقائهم، وأحبابهم وأطّبائهم، وفي الاستبيانات، بل وعلى أنفسهم. ورغم ذلك، لم نعد بحاجة إلى الاعتماد على ما يقولونه لنا فالبيانات الجديدة المستمدّة من الأنترنيت بمثابة اثار من المعلومات التي يُخلّفها مليارات البشر على محرّك البحث قوقل، وسائل الاتصال الاجتماعي، ومواقع المواعدة، وحتى المواقع الإباحية .....وأخيرا تتكشف الحقيقة " الكل يكذب "

[18] زيجمونت بامونت، *الأزمنة السائلة: العيش في عصر اللايقين*، (ترجمة حجاج أبو جبر)، بيروت، الشبكة العربية للبحث والنشر، 2017، ص. 29.

[19] ذات المرجع ص 46.

[20] ذات المرجع ص 17.

[21] عقيل البكوش، سياسة الذاكرة في سياق العدالة الانتقالية: حالة هيئة الحقيقة والكرامة في تونس، مجلة إضافات، عدد46، الجمعية العربية لعلم الاجتماع، بيروت، 2019، ص. 168.

[22] منير السعيداني، تصرف المضارع للماضي ضمن مصدر رقمي https://www.academia.edu/31506385/

قائمة المراجع والمصادر:

1. **أحمد زكي بدوي**، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية: إنجليزي فرنسي عربي، الطبعة الأولى، مكتبة لبنان، بيروت.
2. **محمد الترسالي**، التغير الاجتماعي بين النظرية والواقع، مقاربات للنشر والصناعات الثقافية، المغرب 2017.
3. **خميّس طعم الله**، مناهج البحث وأدواته في العلوم الاجتماعي، مركز النشر الجامعي، الطبعة الأولى، تونس 2004.
4. **زيجمونت بامونت**، الأزمنة السائلة: العيش في عصر اللايقين، ترجمة حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للبحث والنشر، بيروت 2017.
5. **ستيفان تونيلا**، سوسيولوجيا الفضاءات الحضرية العامة، ترجمة إدريس الغزواني، المجلة العربية لعلم الاجتماع: إضافات، الجمعية العربية لعلم الاجتماع، العدد 46، بيروت 2019.

6. **عبد الباقي الهرماسي**، الشباب والثقافة والتحولات الاجتماعية، منشورات تبر الزمان، تونس 2005.
7. **فتحي التريكي ورشيدة التريكي**، فلسفة الحداثة، إنتاج ومنشورات مركز الإنماء القومي، بيروت 1998.
8. **كمل بومنير**، النظرية النقدية لمدرسة فرانفورت من ماكس هوركهايمر إلى أكسال هونيث، الدار العربية للعلوم، الطبعة الأولى، بيروت 2010.
9. **مجموعة من الكتاّب**، نظرية الثقافة، ترجمة علي السيد الصاوي، مراجعة الفاروق زكي يونس، سلسلة عالم المعرفة، العدد 223، الكويت 1978.

10. قائمة المراجع والمصادر باللغة الفرنسية:

11. **Beck Ulrich,** la société du risque, 1ère édition 1989, traduit de l'allemande par Laure Bernardi, Paris, Flammarion, 2001.

12. **Blanc(N)et autre**, le concept de la représentation psychologie, PUF, Paris 2006.

13. **ClaudLevi-strauss**, la pensée sauvage, Plon, Paris, 1962.

14. **Fichier G.N** (2005), les concepts fondamentaux de la psychologie sociale, 3éme Edition Paris, Dunod

15. **GAY, R**, Talcot Persons et la sociologie américaine, PUF, Paris, 1978.

16. **Georges Balandier,** anthropo- logiques, librairie générale Française, Paris 1985.

17. **Pierre Bourdieu**, la distinction, critique sociale du jugement, Ed Minuit, Paris1979.
18. **Pierre Bourdieu**, questions de sociologie,**Cérés** Editions, Tunis 1993.
19. **قائمة المواقع الرقميّة:**
20. (https://ar.wikipedia.org/wiki/
21. /https://www.imlebanon.org/
22. https://science-juridique.blogspot.com
23. **استمارة المشاركة**

الباحث: **مصطفى البحري**

مدير مؤسسة تربوية وطالب دكتورا بكلية الآداب بصفاقس – اختصاص علم اجتماع –

له العديد من المقالات والمشاركات العلمية أهمها:

–بحث محكم موسوم ب " الرسم على الدروع بين الاستباحة وجمالية الخطاب الاحتجاجي " مؤسسة مؤمنون بلا حدود

الخط المغربي يسكن قلب العمومي: مؤسسة مؤمنون بلا حدود

الخطأ في خطاب الجدران: من الخضوع إلى الاخضاع: مؤسسة مؤمنون بلا حدود

الحميمي ولإقصائي والمقزز والمقدس في خطاب الجدران: مؤسسة مؤمنون بلا حدود

إزاحة المقدس في الفضاء الافتراضي بين خبث الذات ولذة العمومي: مؤسسة مؤمنون بلا حدود

الاجرام والسرديات الثقافية الناعمة: مؤسسة مؤمنون بلا حدود

الجائحة وبعد: حينما يكون الموت وكأنه ضرب من الحياة: مؤسسة مؤمنون بلا حدود

المشاركة في الندوة العلمية الدولية الافتراضية: العلوم وما بعد الجائحة بمقال موسوم ب الجائحة والسرديات الثقافية الجديدة دراسة سوسيو ثقافية

المشاركة في المؤتمر الدولي الأول بطرابلس الليبية حول المخدرات والمؤثرات العقلية وتداعيتها على الاسرة والمجتمع بمقال موسوم ب الإدمان على المخدرات تعبير عن الهامشية الاجتماعية.